

غزوة خيبر

كان يهود خيبر الذين يسكنون فى الشمال قوة.. فهم يملكون المال ويملكون العتاد.. وحصونهم منيعة فوق قمم الجبال.. ولهم مزارع وحدائق تدر عليهم الكثير.. وكانوا يكونون للنبي عداوة شديدة.. وكانوا ينتهزون الفرص للقضاء عليه.. ولم ينسوا ما فعله النبي فى يهود المدينة لخيانتهم العهود والمواثيق.. وكراهيتهم للرسالة والرسول..

وكان لابد أن يأمن المسلمون أنفسهم من غدر يهود خيبر فى الشمال.. كما آمنوا مكة فى الجنوب.. حتى يتمكن النبي ﷺ من نشر الدعوة. وبث ما فيها من مبادئ وقيم فى القلوب.

وهكذا لم يمض سوى خمسة عشر يوما بعد العودة من الحديبية، أو شهر فى أقوال أخرى، حتى قرر النبي أن يهاجم يهود خيبر، حتى لا يسود فى شبه الجزيرة العربية إلا الدين الخاتم.. وحتى يقضى على نفوذ اليهود السياسى.. ويأمن ألا يكون عوناً للأعداء عليه.. وخاصة لو جاء هذا العدو من قبل الروم أو الفرس، أو حتى القبائل العربية التى طالما تأمرت معهم اليهود للقضاء على الدعوة الإسلامية !

وقد كان يهود خيبر يحسون بالخطر الإسلامى أشد ما يكون الإحساس وخاصة بعد صلح الحديبية.. التى آمن من خلالها المسلمون من جهة قریش.. ومن هنا فقد فطن إلى ذلك زعيمهم سلام بن مشكم.. ونادى بأن يتحد كل يهود الشمال.. خيبر وفدك ووادى القرى، وتيماء.. ليكونوا يدا واحدة فى مواجهة النبي ﷺ..

وعلم الرسول بمؤامرة أخرى يحيكها اليهود وهو اتفاقهم مع (غطفان) على أن يعطوها بعض الثمار، وتقوم هى كخط دفاع عنهم.. فإذا هاجم المسلمون خيبر.. وقع المسلمون فى مصيدة بين قوات غطفان من الخلف وقوات اليهود من الأمام..

وقرر النبى ﷺ مفاجأتهم فى عقر دارهم.. فجهز جيشه من الذين كانوا معه فى صلح الحديبية.. هؤلاء الذين بايعوه بيعه الرضوان، وقرروا الاستشهاد فى سبيل الله.. ووضعوا يدهم فى يد الرسول يبايعونه على الموت.. هؤلاء أقدر الناس على تحمل المسؤولية فى هذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الإسلام.. وهم أحق الناس بالغنائم.. وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

وخرج النبى بهذا الجيش الذى كان تعداداه ألفا وستمائة ومعهم مائة فارس فى قول، وفى قول آخر ألف وأربعمائة رجل منهم مائتا فارس فى قول آخر لمهاجمة يهود خيبر الذين يربو عدد جنودهم على عشرة آلاف مقاتل..

وقد حاول بعض الأعراب للذين دعاهم النبى إلى الحج معه يوم اتجه صوب الحديبية أن يذهبوا مع النبى لقتال اليهود طمعا فى الغنائم، فرفض النبى دعوتهم.. لأنهم تخاذلوا وتحججوا بأوهى المعاذير حتى لا يخرجوا مع النبى لأنهم كانوا يظنون أن المسلمين سوف تهزمهم مكة هزيمة منكرة لأنهم لا يملكون معهم إلا السيوف.. وأن قريشا سوف تنتهز هذه الفرصة للانتقام.. ومن هنا فقد هربوا من مواجهة الموقف.. وأنزل الله فيهم:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُمْضِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١١ - ١٣].

خرج النبی بجيشه الذی يضم المؤمنین الصامدين، الذین ملأ الإیمان قلوبهم صوب خیبر التی تبعد قرابة مائة میل عن المدينه.. قطع هذه المسافة فی ثلاث لیل.. وكانت معه فی هذه الغزوة أم المؤمنین (أم سلمة) التی كانت معه فی الحديبية..

وكان المسلمون يريدون أن يفاجئوا العدو قبل أن يعرف بهجومهم فيستعدوا له.. فكانوا يسرعون الخطی.. وكان صوت (عامر بن الأكوع) يحثهم على الجهاد وكان يغنی شعر ابن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينه علينا

وثبت الأقدام إذ لاقينا

وفاجأ النبی يهود خیبر.. فقد كان بعضهم قد خرج فی صباح هذا اليوم لرعاية حدائقهم وزرعهم.. وفوجئوا بجيش المسلمين، فرجعوا بسرعة إلى حصونهم.. وكانت حصون اليهود عددها ثمانية..

وبدأ المسلمون هجومهم على حصن يسمى حصن الناعم.. فحاصروه سبعة أيام دون جدوى.. وكان لابد من مهاجمة الحصن، وأمر النبی أبا بكر الصديق أن يتوجه إلى مهاجمة الحصن ولكن لم يتم الفتح المشهود، فأمر النبی عمر بن الخطاب أن يقود المعركة.. ولكنه عاد ولم يتحقق النصر، فقال النبی ﷺ:

- «لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله. ويحبانه، ويفتح على يديه وليس بالفرار»..

وأشرأبت النفوس إلى من سيخطى بهذا الشرف.. وأصبح كل صحابي يتمنى أن يكون هذا الرجل الذی سيكون على يديه فتح هذا الحصن، ويكون حبيبا لله ورسوله..

وفى صبيحة اليوم التالى كان يحمل الراية على بن أبى طالب، وأسرع نحو الحصن يقود جيش المسلمين بشجاعته المعهودة، وخرج إليه فارس يهودى يدعى (مرحب) كان فارساً صعب المراس، مدججاً بالسلاح.. متدرعاً بدروعه.. وضرب علياً ضربة شديدة اسقطت الترس من يده، فما كان من على إلا أن التفت بسرعة حوله، فوجد باباً ضخماً كان بجوار الحصن، فأخذه، وقاتل به، وضرب (مرحب) ضربة قوية أسلمته للموت!

وشاهد اليهود هذا المنظر فحاولوا الفرار، ولكن المسلمين أسرعوا خلفهم واستولوا على الحصن المنيع!

ويقول الرواة أن (الباب) الذى كان يقاتل به على بن أبى طالب كان من الضخامة والثقل بمكان لدرجة أن سبعة من الصحابة لم يستطيعوا حمله!!

وبدأ الزحف الإسلامى نحو مختلف الحصون اليهودية، وقاتلوا اليهود قتالاً عنيفاً ضارياً.. وتساقطت الحصون الواحدة تلو الأخرى.. وفى حصن (القموص) وجد المسلمون فيه بعد سقوطه نساء زعماء اليهود.. وكان من بينهن صفية بنت حى بن أخطب التى تزوجها الرسول وأصبحت أمّاً من أمهات المسلمين..

ووجد اليهود أن الهزيمة واقعة لا محالة، فقرر زعيمهم كنانة بن الربيع أن تحقن الدماء، وأن يجلو اليهود تاركين أموالهم وأرضهم وسلاحهم.. ورضى الرسول بهذه الشروط وقال لكنانة:

- «وبرئت ذمة الله وذمة رسوله أن كتمتمونى شيئاً من أموالكم»..

وعلم النبى من أحد أسرى اليهود بأن كنانة قد أخفى أموال (حى بن أخطب).. وبحث النبى عن هذه الأموال ووجدها، فأمر بقتل (كنانة) لخيانته.. وكنانة كان زوجاً (لصفية بنت حى)..

وقد عرض اليهود بعد الهزيمة أن يزرعوا أرض خيبر، ويظلوا بها، وهم أهل خبرة بزراعة هذه الأرض، على أن يكون نصف ريعها للمسلمين،

ونصفها الآخر لهم.. ووافق الرسول على ذلك واشترط أن من حقه طردهم من خير متى شاء..

وغنم المسلمون غنائم هائلة.. وفي نفس الوقت ارتفعت روح المسلمين المعنوية، لتحقيق هذه الانتصارات الهائلة على اليهود، وبالتالي فقد أصبح المسلمون في أمان من اليهود ومن مشركي مكة..

وكلف النبي (ابن رواحة) أن يكون هو الحكم بين المسلمين وبين اليهود في تقدير نصف المحصولات كما نص الاتفاق بين النبي وبين اليهود، وكان الرجل عادلا لا يرعى إلا الحق.. والعجيب أن اليهود حاولوا رشوته حتى يكون نصيب المسلمين أقل من النصف، ولكن الرجل اليقظ الضمير أبى ذلك، وقال لهم:

- «يا أعداء الله تعطونني السحت، والله لقد جئكم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير.. ولا يحملني بغضي إياكم أو حبي إياه على ألا أعدل بينكما»..

وواضح أن الغدر من طبيعة اليهود.. فقد حدث أن جاءت زينب بنت الحارث وهي يهودية وقدمت طعاما للنبي ﷺ، وقد زعمت أن هذا الطعام هدية للرسول الكريم الذي أبقى قومها في ديارهم، وعاملهم معاملة كريمة.. وكانت هذه المرأة قد وضعت السم في لحم الشاة.. وأخذ النبي قطعة من اللحم فلاكها في فمه، ثم قذفها وهو يقول:

- «ان هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم»..

وقد كان (بشر بن البراء بن معرور).. يأكل مع النبي فابتلع اللحم.. ولم يلبث أن شعر بأعراض السم، ولفظ أنفاسه الأخيرة..

وأحضروا المرأة وسألوها لماذا فعلت هذه الفعلة القبيحة.. وكان ردها إنها أرادت أن تنتقم لقومها، وأن محمدا لو كان نبيا فسوف يخبره الله بأن الطعام مسموم!

وقد قتلت هذه المرأة لأنها كانت السبب فى موت بشر...
وبعد سقوط حصون خيبر، تهاوت قبائل اليهود الأخرى فقد أيقنوا
استحالة الانتصار على المسلمين، فاستسلمت (فدك) للنبي بشروط خيبر...
وكانت أرض فدك للنبي ﷺ، لأن أحدا من المسلمين لم يقاتل فيها...
أما (وادي القرى) فقد استسلموا بعد حصار بسيط، واستسلمت (تيماء)
على أساس دفع الجزية.. وهكذا زالت سطوة اليهود من الشمال، وغنم
المسلمون غنائم رفعت مستوى حياتهم المعيشية ارتفاعا كبيرا...
وعاد النبي بعد هذه المعارك التي استمرت قرابة الشهرين ليوصل جهاده
العظيم...

وكم كانت فرحة المسلمين غامرة، عندما عادوا إلى المدينة فوجدوا
المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وقد رجعوا إلى مدينة رسول الله بعد تلك
الغربة التي امتدت قرابة العشر سنوات.. وكان من هؤلاء الذين عادوا أم
حبيبة التي تزوجها النبي.. بعد أن علم أن زوجها (عبيد الله) قد ارتد عن
الإسلام، وأنها أنكرت عليه ذلك فبعث النبي إلى نجاشي الحبشة أن يزوجه
له، وقد حقق النجاشي رغبة رسول الله.. وكان وكيلها خالد بن سعيد
ابن العاص، وعقد الزواج جعفر بن أبي طالب بن عم النبي عليه الصلاة
والسلام.. أما الصداق فكان هدية من النجاشي لنبي الإسلام وكان أربعمائة
دينار..

وقد فرح النبي بعودة ابن عمه جعفر من رحلة الغربة الطويلة وقال:

- «ما أدرى بأيهم أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»..

